ملامح نظريات التعلم عند ابن خلدون من خلال مقدمته
The traces of Ibn Khaldun's theories of learning theories his Moukadima

سورية قادري ، إسماعيل سيبوكر
مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

إن العلوم الحديثة التي أسس لها الغرب في أغلبها نجد لها إرهاصات في التراث العربي، وكمثال على ذلك نظريات التعلم؛كالسلوكية لواطسنون والعقلية لتشومسكي والبنائية لبياجيه، لها ملامح في مقدمة ابن خلدون، ومن هنا جاءت هذه الدراسة بهدف الكشف عن مواطن الاتفاق والاختلاف بين هذه النظريات وما جاء به ابن خلدون

كلمات المفتاحية: نظريات التعلم-ابن خلدون-المقدمة.

Abstract

Most of Western and European modern sciences manifest explicit implications in the Arab heritage, namely learning theories. This includes Watson's behaviourism, Chomskey's cognitivism, and Piaget's structuralism. All these theories have traces in Ibn Khaldoun's Moukadima. This study tries to highlight the similarities and differences between the above-mentioned theories and those developed by Ibn Khaldoun.

Key words: learning theories, cognitivism, structuralism, Moukadima, Ibn Khaldoun

Résumé:

Les sciences modernes, que l'Occident a établies pour la plupart, ont des implications sur l'héritage arabe, comme par exemple les théories de l'apprentissage telles que la philosophie de Lutzson , le mentalisme de Chomsky et le structuralisme de Piaget, ayant une allusion dans l'introduction. A cet effet, l'étude vise à révéler les points de convergence et de divergence entre ces théories. C'est ce qu'il a soulevé Ibn Khaldoun.

Mots-clés : Théories de l'apprentissage - Ibn Khaldoun - Introduction.

إن المتعارف عليه أن العلم تراكمي؛ فلا يُتصور علم نشأ دفعة واحدة دون إرهاصات تسبقه، ولهذا دائما ما نبحث في تراثنا العربي عن آثار العلوم الغربية، فنجد لها آثارا بارزة ولكنها لا ترقى إلى مستوى التأسيس والتنظير؛ ذلك أن علماء العرب غالبا ما يتحدثون عن هذه المعارف -المؤسس لها عند الغرب بنظريات-في جانب هامشي، أي لا يتطرقون لها رأسا بالتنظير ولكن تأتي في إطار حديثهم عن علوم أخرى، وهذا ما نلاحظه في مقدمة ابن خلدون، إذ المتمعن في مقدمته يجد الأثر البارز لنظريات التعلم السلوكية والعقلية والبنائية.

فقد تحدث ابن خلدون عن هذه النظريات، وقد ورد هذا في الباب السادس من مقدمته، والقول بهذا لا يعني –كما سبقت الإشارة-أنه قد نظر لهذه النظريات كما فعل غيره إنما جاء ذلك في سياق حديثه عن التعليم وطرقه وأساليبه.

فما هي أبرز الاتفاقات والملامح بينه وبين النظريات الثلاثة –السلوكية والعقلية والبنائية-؟

قبل الحديث في هذا لا بد أن نعرف بابن خلدون ومقدمته.

ابن خلدون: هو صاحب المقدمة .و هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس سنة 732هـــــ332 م ،ينحدر من أصل أندلسي أشبيلي (بن خلدون: 2001،ص3) و يعد ابن خلدون المؤسس الأول لعلم الاجتماع...درس كافة العلوم السائدة في عصره كما شغل كثير من المناصب الحكومية، وتولى كثيرا من الوظائف في التدريس والقضاء (أنور:2009، ص209)له سبعة مؤلفات هي: تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي ورحلة وشرح الرجز لابن الخطيب في الأصول و شرح قصيدة ابن عبدون وشرح قصيدة البردى و طبيعة العمران و كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر وفي آخر هذا الكتاب<<كتاب التعريفات بابن خلدون>> (الحضرمي:2004، ص4)توفي ابن خلدون في مصر عام808هـــ عن عمر يناهز 76 عاما بعد أن أتم تأليف كتابه التاريخ عام 797ه (المرجع نفسه،ص4)ـــ.

المقدمة:

هي أشهر مؤلفات ابن خلدون، وهي مقدمة لكتاب ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. وقد جاءت تعبيرا على خبراته وجولاته، فجمعت بين التجربة الحياتية الحية وبين التأمل والنظرة (الحوسني:2006، ص58) وتضمنت آراءه في شتى المجالات وإن كانت أقرب إلى علم الاجتماع منه إلى العلوم الأخرى إلا أنها احتوت آراء فلسفية ولغوية وتعليمية بل وتربوية أيضا. وكما يُرْجِع الباحثون علم الاجتماع إليه يُرجعون علوم أخرى له كذلك، فمنهم من يرجع الجذور الأولى لعلم الأنثروبولوجيا إلى الكتاب الذي ألفه ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...) (مصباح:2010، ص30). والذي كتب مقدمته في خلوته التي دامت أربع سنوات 776ـــ 780 في قلعة بني سلامة في وهران غربي الجزائر(بن خلدون، ص3). فكانت المقدمة نتاج تلك الخلوة التي قال عنها:<<سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة>>.(المرجع نفسه، ص3).

أما من حيث المحتوى فإن صاحبها ابتدأ بمقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها. بدأ فيها بالبسملة، ثم عرف عن نفسه بالعبد الفقير إلى الله، ثم حمد الله وعدد صفاته وعظائمه، ومن ثم شرع في الحديث عن التاريخ والتعريف به.

أما من ناحية الأبواب والفصول؛ فقد احتوت المقدمة ستة أبواب. وكل المقدمة هي بمثابة كتاب في العمران؛ ذلك أنه يقول الكتاب الأول: في صنعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب وفيه ستة أبواب.

الباب الأول: في العمران البشري على الجملة وفيه **ست مقدمات.**

الباب الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه **تسعة وعشرون فصلا**.

الباب الثالث: في الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات. وعدد فصوله **أربعة وخمسون.**

الباب الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق، ويحوي **اثنين وعشرين فصلا**.

الباب الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل، ويتضمن **ثلاثة وثلاثين فصلا**.

الباب السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق، وقد اشتمل على **ستين فصلا**. وهو المعني بالدراسة؛ ذلك أن أفكار ابن خلدون التربوية والتعليمية جاءت في هذا الفصل.

ثم **خاتمة**، ثم **الفهرس**.

إن الحديث عن تعلم اللغة لا يمكن تفسيره بمعزل عن نظرياته التي فسرت حدوثه من زاويات نظر مختلفة؛ كل نظرية بحسب التوجه الخاص بها.

ولقد اشتهرت ثلاث نظريات في تفسير التعلم هي: النظرية السلوكية والنظرية العقلية والنظرية المعرفية، وسنتحدث عن ملامح كل منهم عند ابن خلدون.

النظرية السلوكية: تمثل هذه النظرية الاتجاه السلوكي الذي ظهر سنة 1912 في الولايات المتحدة، ومن أشهر مؤسسيه واطسون (نوفل وأبو عواد: 2011، ص107) وسكينر وبلومفيلد. وقد جاءت هذه النظرية كهجوم على الطرق الاستبطانية المستخدمة للتعرف على محتويات العقل البشري، لذلك دعا واطسون إلى استخدام طرق قياسية موضوعية (الهادي وعياد:2009، ص69).

وترتكز هذه النظرية على ثلاثية المثير والاستجابة والتعزيز فهي تهدف إلى تحديد العلاقات التي تعزز المثير والاستجابة في اللغة وسلوك التواصل(الزريقات:2005، ص136)، أي أن كل استجابة لا بد لها من مثير، ولكي تتكرر الاستجابة لا بد من التعزيز.

فكل الأفعال لا يمكن حدوثها إلا بمثير؛ هذا المثير إما أن يكون داخليا، كما قد يكون خارجيا، فتصبح النتيجة فعلا أدائيا أو حتى قولا، وإذا ما أردنا أن نثبت هذا الفعل أو القول لا بد من تعزيزها بقول أو فعل أيضا، بحسب التعزيز المناسب لها.

ونجد سكينر يوضح عملية اكتساب اللغة عند الطفل، ونظرته هذه من زاوية النظرية السلوكية التي يعد أحد أقطابها، حيث يرى:

1ــ أن اللغة الإنسانية مهارة كغيرها من المهارات الأخرى ينمو وجودها عند الطفل عن طريق المحاولة والخطأ.

2ــ هذه المهارة(اللغة) ترتقي عن طريق المكافأة (التعزيز).

3ــ تنعدم هذه المهارة إذا لم تصحب بالمكافأة أو التعزيز.

4ــ المكافأة المصاحبة للمهارة اللغوية هي واحدة من احتمالات عديدة مثل التأييد الاجتماعي، أو تقبل الملفوظات التي يستخدمها الوالدان أو الأخرون الذين يلازمونه في حياته اليومية.(حساني: 2009، ص91-92).

فاكتساب اللغة حسبهم لا يختلف عن أي سلوك آخر، فالطفل يُثار إثارة داخلية تنبع من رغبته في التعبير عن حاجاته، ورغبته في التواصل مع غيره، فتكون الاستجابة باللغة، وهي استجابة لفظية، فعندها يتلقى الطفل تعزيزا وتأييدا ممن حوله يسعى إلى تكرارها وبهذا يكتسب اللغة، لأن الاستجابة اللفظية عندما تدعم تميل إلى الحدوث المتكرر شأنها شأن بقية الاستجابات (يوسف: 1990، ص98) الأخرى.

ويرى أصحاب هذه النظرية بأن اكتساب الطفل للغة يتحقق عن طريق البيئة الاجتماعية، وأن عقل الطفل صفحة بيضاء نقية تستقبل ما يرد عليها من الصيغ والعبارات (الشيخ: 2011، ص87)؛ ذلك أن اللغة حسبهم ليست سوى سلوكا يكتسب بالتعلم والتدرب والممارسة (المرجع نفسه، ص88)، ومنه يتضح أن اكتساب اللغة عند السلوكيين يُبنى على:

- المثير: ويكون داخليا أو خارجيا.
- والاستجابة: وهي التلفظ باللغة.
- والتعزيز: الذي يؤدي إلى التكرار الذي من شأنه اكساب الطفل اللغة؛ لأن في غيابه انعداما لمهارة اللغة.
- اللغة سلوك يكتسب عن طريق البيئة الاجتماعية ويكتسب بالتدريب والممارسة.

❖ وقد أكد ابن خلدون على التكرار في تعلم اللغة في أكثر من موضع، مثال ذلك قوله: والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة (بن خلدون، ص764) وهذا حال اكتساب اللغة بِعدها ملكة من الملكات.

ولقوله هذا ينسب علي أحمد مدكور النظرية السلوكية له، ويرى بأن جذورها كانت بداية منه (مدكور: 2007، ص98).

ويتضح أن ابن خلدون تفطن إلى أن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء ((شمس الدين: 1984، ص96). استنادا إلى قوله السابق، وأنه يكتسب اللغة من البيئة التي يعيش فيها، وأن الاكتساب يكون بالتكرار حتى يصبح ملكة راسخة.

فالتكرار هو ما يقابله عند السلوكيين المثير والاستجابة فتكرار المثير يؤدي إلى نفس الاستجابة، فأول ما يأتي المثير يقع في النفس أولا ويرتبط بتلك الاستجابة وعند تكراره يصبح وكأن المثير لا بدل له من تلازم لتلك الاستجابة فهنا يكون صفة، وبكثرة تكراره يصبح حالا، أي بديهية التلازم بين المثير والاستجابة.

والقول بالمثير والاستجابة والتعزيز هو نفسه تكرار الأفعال عند ابن خلدون، وأما ما ذهب إليه السلوكيون بهذه النظرية فكأنما يصرحون بأن الطفل يولد صفحة بيضاء وهو الأمر ذاته الذي ذهب إليه ابن خلدون.

هذه أهم ملامح النظرية السلوكية في مقدمته.

النظرية العقلية: لقد ظهرت النظرية العقلية بعد ظهور النظرية السلوكية، وجاءت كرد عليها، نظرا للقصور الوارد فيها؛ إذ اعتبرت الإنسان كالحيوان وألغت كل القدرات العقلية في اكتساب اللغة.

وبالنظرية العقلية رد تشومسكي الاعتبار إلى القدرات العقلية التي يمتلكها الإنسان والتي تجعله يمتاز بها من الكائنات الأخرى، وهي القدرات التي تم تغييبها لدى النزعة السلوكية (حساني، ص95)، وإلى هذا أشار ابن خلدون أيضا فهو يرى بأن الفكر هو الخاصة البشرية التي تُمَيِّزُ بها البشر عن غيره من الحيوان (بن خلدون، ص593).

وتشومسكي على نقيض السلوكيين لا يرى بأن الطفل يولد صفحة بيضاء، بل يولد مهيأ لاستعمال اللغة، فهو يمتلك نماذج تركيبية ذهنية، وهذه النماذج هي التي تكون الكليات اللغوية عند البشر(حساني، ص95)؛ والتي هي بمثابة القوالب التي يبني عليها الأطفال كلامهم، فتمكنهم من الإبداع في لغتهم، ويظهر هذا الإبداع في ابتكار جمل وتراكيب.

لم يكونوا قد سمعوها من قبل. وهم في الوقت نفسه. على قدر كبير من الوعي اللغوي. قدر يجعلهم قادرين على فهم التراكيب الجديدة التي لم يسمعوها من قبل.(استيتية: 2008، ص173).

ليس هذا فحسب، بل على قدر يجعلهم يدلون بأحكام عليها من حيث الخطأ والصواب في التركيب (زكريا، ص9)كل هذا يكون من خلال معرفة الطفل للغته، وتكون هذه المعرفة معرفة ضمنية.

ويرى تشومسكي أن لغات العالم جميعا تشترك في قواعد كلية، فالطفل يولد بقدرة فطرية على اكتساب أي لغة كانت نظرا لاشتراك اللغات في كليات قاعدية عامة وهذا المبدأ يسمى القواعد العالمية Grammar Universal وهو يشكل أساس النظام النحوي لجميع اللغات.(فارع وآخرون: 2008، ص236) ويذهب تشومسكي إلى أن هذه المبادئ يمكن أن تحدد(بيولوجيا) بمعنى أنها تمثل جزءا مما نسميه (الطبيعة) البشرية(الراجحي: 2008، ص113) وبعدما يكتسب الطفل اللغة يبدأ في عملية إنتاج الكلام، وفي هذه العملية يميز تشومسكي بين مصطلحين أساسين هما الكفاءة (الكفاية)والأداء. فبينهما بون كبير؛ إذ إن الكفاية هي ما تعرف أما الأداء فهو ما تفعل(طعيمة: 2004، ص174)؛ أي أن الكفاءة هي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة المكتسبة أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة والاستعمال والممارسة الظاهرة لقواعد تلك اللغة.

ومما سبق يتضح ما يلي:

- يرفض تشومسكي ما ذهب إليه السلوكيون، ويرى بأن نظرية المثير والاستجابة نظرية قاصرة(حساني، ص 96) فهي عاجز عن تفسير اللغة تفسيرا صحيحا.
- كل طفل يستطيع أن ينتج اللغة من خلال الكليات أو النماذج الذهنية التي تُكَون الكليات اللغوية عند البشر.
- كل طفل يستطيع أن يبدع في لغته بإنتاج جمل لم يسمعها من قبل، ويمكنه الحكم عليها بالخطأ والصواب من خلال معرفته الضمنية بقواعد لغته.
- عملية إنتاج وفهم الكلام تقوم على الكفاءة اللغوية (المعرفة الضمنية بالقواعد) وعلى الأداء (الممارسة الفعلية للغة).

إن مصطلح الكفاية اللغوية الذي جاء به تشومسكي له مقابل في التراث اللغوي العربي عند ابن خلدون، وهذا المصطلح الذي ورد ضمن نظرية تشومسكي يعرفه ابن خلدون قبله بمئات السنين تحت مسمى "ملكة اللسان" (الشيخ، ص90).

ولا يقف سَبْقُ ابن خلدون لتشومسكي على هذا المصطلح فحسب، بل سبقه إلى النماذج الذهنية والإبداع في اللغة، وإلى الكفاءة والأداء أيضا. والدليل:

في وجود نماذج ذهنية: يقول ابن خلدون: حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه(بن خلدون،ص774)، وهذا دليل واضح على أن من يكتسب ملكة في لغة ما (وإن مثل بالعربية) فإنه يملك نماذج ينسج عليها كلامه وتراكيبه ويبدع في إنتاج جمل على هذا النموذج الذهني المرتسم عنده.

وابن خلدون يقول بالتصرف في مقابل الإبداع عند تشومسكي، إذ يقول: ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم (المرجع نفسه، 771)، وهنا نقطة الالتقاء بينه وتشومسكي.

الحكم بالخطأ والصواب: يرى ابن خلدون كما تشومسكي أن من اكتسب ملكة في اللغة ورسخت عنده يستطيع أن يحكم على الصواب من الخطأ في التركيب الذي يسمع أو يلفظ.

وفي هذا يقول: ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك (المرجع نفسه، ص776). وقوله هذا لا ينقض آخره أوله، إنما قصد أنه لا يستطيع أن يحتج على الخطأ لأنه لا يملك معرفة واعية بالقواعد التي تتأتى بمعرفة صناعة العربية. إنما يملك معرفة لا واعية وبها يهتدي إلى الصواب والخطأ. فصاحب الملكة يعرف الخطأ الذي يخالف النموذج الذهني أو النسق كما يسميه ابن خلدون.

الكفاءة والأداء: وهذان المصطلحان لهما الأثر الواضح في المقدمة، فقد تحدث ابن خلدون على نوعين من الكفاءة؛ كفاءة ضمنية لا شعورية وأخرى ظاهرة شعورية، وهو بهذا تجاوز تشومسكي الذي يرى بأن الملكة أو الكفاية هي المعرفة اللاواعية والضمنية بقواعد اللغة، التي يكتسبها المتكلم منذ طفولته (العلوي: 2004، ص44).

ويتضح أن الكفاءة اللغوية عند تشومسكي هي نفسها الملكة الأولى عند ابن خلدون التي نشأ عليها الأشخاص وطبعوا عليها(نعمان:2006،ص 164) ويتجاوز ابن خلدون ذلك فنجده يميز بين نوعين من الكفاءة هما:

الكفاءة الظاهرة: ولا يُقصد بها كونها ظاهرة في الكلام وإنما واعية، ويرى ابن خلدون بأن لا أثر لها في اكتساب اللغة وتعلمها وإنما هي معرفة نظرية، وهي عنده معرفة القواعد بالاستقراء ويرى بأنها علم بالكيفية لا نفس الكيفية. فليست نفس الملكة(بن خلدون، ص 772)، فمعرفة قواعد اللغة نظريا لا يُؤثر في اكتساب الملكة.

ثم يشير إلى **الكفاءة الضمنية**، التي هي الأساس في استقام اللسان وعدوله عن اللحن، وهي في امتلاك النماذج اللغوية أو النسق أو المنوال الذي نسجت عليه العرب كلامها. (بن خلدون: ص 774).

ويتضح مما سبق أن ابن خلدون قد تفطن إلى دور العقل في اكتساب اللغة قبل تشومسكي، وإن لم يكن قد نظر له وأسس له نظريات كما فعل الأخر.

النظرية المعرفية: تعود هذه النظرية إلى مؤسسها جان بياجيه، وتقوم على فكرة مفادها أن الطفل يكتسب اللغة من خلال تفاعله مع البيئة. وتدرس نظرية (بياجيه) نمو الفرد من خلال عملياته على البيئة المحيطة(سليم: 2002، ص36). فالبيئة هي أساس النمو في شتى أنواعه. ولها كل الدور في اكتساب اللغة.

وهذه النظرية ترتبط بالأسس التي جاء بها في علم النفس، والبيولوجيا، وبنيت على آرائه وأبحاثه، لذا نسبت له وتحددت معالم اتجاهها في حقل تعليم اللغة في القضايا التالية:

أولا: تنطلق من علم النفس الوراثي والبيولوجي للمعرفة.

ثانيا: الإجابة على سؤال كيف تنمو المعارف لدى الأفراد؟(عيساني: 2012، ص83).

فبياجيه يرى بأن الطفل يولد وله استعداد فطري على اكتساب اللغة لوجود تنظيمات داخلية تمكنه من ذلك، وعندما يتحدث بياجيه عن تنظيمات داخلية فإنه لا يعني في الوقت نفسه ما يقصده كرومسكي، من وجود نماذج للتركيب اللغوي، أو القواعد اللغوية، بقدر ما يعني وجود استعداد للتعامل مع الرموز اللغوية، التي تعبر عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة، منذ المرحلة الأولى وهي المرحلة الحسية الحركية(إسماعيل: 1986، ص110).

فبياجيه يتحدث عن استعدادات بينما تشومسكي يتحدث عن موروثات. وهذه الاستعدادات تمكن الطفل من اكتساب اللغة وهي العامل الأساسي فيها.

وعملية اكتساب المعلومات من العالم الخارجي وتنظيمها من غير تناقضات في شكل معرفي منظم عند الطفل يكون عن طريق عملية الموازنة. والتي تعني كيف يستطيع الإنسان تنظيم المعلومات المتناثرة في نظام معرفي غير متناقض...

وعن طريق هذه القدرة الموروثة التي نطلق عليها اسم الموازنة يستطيع الإنسان تدريجيا الاستدلال(inference) على الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها الأشياء في هذا العالم (ناصف: 1983، ص284).

وعملية الموازنة تبدأ ببعض الاضطراب أو الانزعاج أو الصراع بين ما هو متوقع وما هو كائن، فيسعى إلى التخفيف من حدة الاضطراب، والهدف النهائي للموازنة هو التكيف، الذي بدوره يقوم بالجمع بين عمليتي التمثل والملاءمة.

التمثل: عملية تحويل الخبرات الجديدة إلى خبرات مألوفة.

الملاءمة: هي عملية الانتباه إلى التجارب الجديدة بصورة مستقلة عن الخبرات السابقة.

- التمثل من دون الملاءمة يشوه الخبرة الجديدة.
- والملاءمة من دون التمثل تؤدي إلى نتائج خاطئة.(المرجع نفسه، ص 284-285)

ولهذا وجب الجمع بينها للوصول إلى اكتساب المعارف والخبرات في نسق منطقي غير متناقض. ومن هنا يميز بياجيه بين نوعين من المعرفة، المعرفة الشكلية والمعرفة الإجرائية.(عيساني، ص86)

-المعرفة الشكلية: تعتمد على الحواس، فهي معرفة محسوسة يتوصل إليها الطفل بالاعتماد على الشكل، كقوله كرة على كل شكل دائري. وتكون في المرحلة الأولى (المرحلة الحس حركية).

-المعرفة الإجرائية: يتوصل إليها بالعقل، وتكون في مراحل متقدمة من النمو المعرفي بحيث يكون الطفل قادرا على الاستدلال العقلي.

وعملية الاستدلال في تنظيم المعارف تنشأ تدريجيا على حسب المراحل العمرية المعرفية عند الطفل؛ فلكل عمر معين مستوى معرفي ينبغي أن يمتلكه الطفل، ومن هنا جاء بياجيه بمراحل النمو المعرفي الأربعة.

❖ **مراحل النمو المعرفي:** تمتاز كل مرحلة بعدد من الخصائص المعرفية، هذه الخصائص تظهر تدريجيا وعلى حسب المرحلة العمرية التي توافقها. نذكر منها الخصائص الأقرب إلى تعلم اللغة، وهي على الترتيب كالتالي:

1ــ المرحلة الحس ــ حركية: وتبدأ من الولادة حتى عمر السنتين. وتتمثل خصائصها في:

- يلتفت إلى مصدر الصوت. -يستخدم بعض الرموز اللغوية.

-وفي نهاية المرحلة تظهر بعض الأنماط السلوكية تعتمد بدرجة بسيطة على التخطيط والتخيل.

2ــ مرحلة ما قبل العمليات المعرفية: يبدأ من نهاية السنة الثانية وحتى السنة السابعة. وتتمثل خصائص هذه المرحلة في:

-يستخدم فيها الطفل الرموز للدلالة على الخبرات والمثيرات البيئية المتعددة.

-تزداد قدرته على المحاكاة والتقليد.

- كما تنمو عنده ظاهرة حب الاستطلاع التي تأخذ شكل طرح الأسئلة المتكرر.

3ــ مرحلة العمليات المادية: تبدأ مع بداية السنة الثامنة إلى نهاية السنة الحادية عشر. وتظهر الخصائص المعرفية لهذه المرحلة في:

-يدرك مفهوم التعويض ويكتسب مفهوم المعكوسية (أحمد أبوك-أبوك أحمد).

-يستطيع التفكير بأكثر من طريقة.

4ــ مرحلة العمليات المجردة: من سن الثانية عشرة وتمتد إلى السنوات اللاحقة. وتتجلى خصائص هذه المرحلة في:

- نمو القدرة على المفاضلة بين البدائل المختلفة واختيار البديل الأمثل من بينها (التفكير الافتراضي.

- نمو القدرة على التفكير المنظم والبحث في جميع الأسباب المحتملة لحدوث ظاهرة ما.

-نمو القدرات على التعليل الاستقرائي والذي يتمثل في استخدام بعض الملاحظات المحددة للوصول إلى تعميمات ومبادئ معينة (الزغلول، ص184-190)، هذه المعارف لا تبنى كل منها على حدة، إنما كل معرفة لا تظهر إلا بعد ظهور المعرفة السابقة لها، لأن المعرفة عند بياجيه تنمو بشكل تراكمي، فتشكل بذلك بنية معرفية. وبياجيه يرى بأن البنية المعرفية مفهوم أساسي في النمو المعرفي حيث تنمو بشكل هرمي تراكمي مما يسمح للفرد بعبور المراحل النمائية المعرفية الأربعة (العتوم: 2012، ص185).

كل هذه الخصائص تنشأ من خلال الاستعداد لاكتساب اللغة، بالتفاعل مع المحيط الخارجي للطفل، ومن خلال التفاعل مع البيئة، ولأن الإنسان جزء من بيئته أضحت دراسته لا يمكن أن تتم بمعزل عن محيطه وبيئته.

فخلاصة هذه النظرية هي دور البيئة في عملية اكتساب اللغة. ويُعد من المبالغة بمكان القول بأن ابن خلدون قد تحدث عن كل ما جاء في هذه النظرية، إنما يتبين أثر لهذه النظرية عند صاحب المقدمة في قوله بدور البيئة هو الأخر في عملية اكتساب اللغة، وفي قوله بالنمو المتدرج. وفي أن اللغة تكتسب ولا تورث.

كل هذا تنبه إليه ابن خلدون من قبل، حيث أكد على دور البيئة في اكتساب اللغة وأن الطفل يتأثر بلغة البيئة التي ينشأ فيها من خلال سماعه لتلك اللغة؛ لأن السمع أبو الملكات اللغوية(بن خلدون، ص754) ومن دون السمع لا يستطيع اكتساب اللغة وهذا حال الأطفال الصم، ولذلك يربط علماء الأرطوفونيا تأخر الكلام بفقدان السمعوفي كثير من الأحيان، فإن التأخر في نمو الكلام واللغة يكون من أكثر المؤشرات الدالة على وجود فقدان السمع(الزريقات2009، ص55)، ومن هنا يتضح دور السمع في اكتساب اللغة.

وقد كانت العرب ترسل أطفالها إلى البادية من أجل أن يكتسبوا اللغة الفصيحة من بيئتها الصافية من العجمة واللحن، تفطنا منهم إلى دور البيئة في اكتساب اللغة.

كما تنبه صاحب المقدمة إلى أن اكتساب اللغة يتم عبر مراحل، يوضحها في مرحلتين وليس أربع، هما مرحلة اكتساب المفردات ومرحلة اكتساب التراكيب. إذ تبدأ بالكلمات المفردة وتنتهي بجمل وتراكيب منتظمة(البديرات:2007، ص62).

وفي هذا يقول: كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك(بن خلدون، 765).

وقوله "**بعدها**" دلالة منه على التدرج، وعلى أن المرحلة الثانية تبني على الأولى. ويؤكد على التدرج في قوله: الملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج (المرجع نفسه، ص796).

كما سبق بياجيه إلى القول بأن الملكة تكتسب ولا تورث(بابلحاج: ص85)، لأن الملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم (بن خلدون: ص544). وصاحب المقدمة يؤكد أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة (المرجع نفسه، ص764). ولما كانت اللغة ملكة فإنها قابلة للتعليم شأنها شأن سائر الملكات فهي تكتسب إذا ولا تورث، وهي قابلة للتعليم. ومن هنا تتبين نقاط الاشتراك بين بياجيه وابن خلدون.

❖ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف تبنى ابن خلدون وتحدث عن كل هذه النظريات، في حين كل نظرية لا تمد للأخرى بصلة؟

إن الجواب الشافي لهذا سُبِقْنَا إليه، إذ وجدناه عند ميشال زكريا في كتابه قضايا ألسنية. حيثقال: لئن أردنا في الختام تصنيف نظرية الاكتساب عند (ابن خلدون) ضمن نظريات الاكتساب في مجال الألسنية، فإنه بإمكاننا القول إن نظرية (ابن خلدون) تقف بين النظرية البيئية كما عند – سكينر-وبين النظرية العقلانية الفطرية لـــ (تشومسكي). فـــ(ابن خلدون) يقارب الأفكار البيئية من حيث التركيز على الممارسة والتكرار، إلا أنه يتخطاها باتجاه أفكار

(تشومسكي) من خلال اعتبار عملية الاكتساب عملية وجدانية تمر بحالات نفسية إلى أن تستقيم ملكة لسانية(زكريا:1993،ص114) أما نظرية بياجية المعرفية فإنه يلتقي معها في تركيزه على وقوع الفعل أولا في مراحل اكتساب اللغة، وفي تركيزه على النمو المتدرج(المرجع نفسه، ص114)

فلكل نظرية ملمح عند ابن خلدون تحدث عنه، سواء الممارسة والتكرار، أم الكفاءة والأداء، أم دور البيئة في التعلم. وهذا لا يعني بحال من الأحوال أنه يتبنى أفكار هذه النظريات، إنما هي أساسيات في اكتساب اللغة عند ابن خلدون لا يمكن تجاوزها، وهو جمع بين أفكار هاته النظريات الثلاث لتظهر نظريته الخلدونية إن صح التعبير.

وخلاصة هذه النظريات الثلاث هي: دور التكرار والممارسة، دور العقل، دور البيئة في اكتساب اللغة، وابن خلدون يرى بأن لكل منهم دور في ذلك وليس الاقتصار على أحد الأدوار كما تتبنى كل نظرية.

وهذا لسببين؛ الأول منهما أن ابن خلدون يعلم بأنه لا يمكن التعلم من خلال نظرية واحدة، وأنها لا بد من أن تتظافر كل العناصر للتعلم بشكل أفضل، لأنه لا يمكن إنكار دور أي منها.

أما الثاني: فإن العرب عامة كانوا موسوعيين، يتطرقون إلى كل التفاصيل في شتى المجالات، ولكن دون التأسيس لنظرية أو التعليم لأسسها، ولهذا دائما ما نقول عند دراسة التراث بوجود ملامح للنظريات، وليس معالم.

المراجع:

1. استتيتية، سمير شريف. (2008). اللسانيات (المجال، المنهج، والوظيفة. عالم الكتب الحديث، إربد. جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط2.
2. إسماعيل، محمد عماد الدين. (1986). الأطفال مرآة المجتمع. عالم المعرفة، الكويت، د ط.
3. أنور، أحمد. (2009). تاريخ الفكر الاجتماعي. مركز المحروسة، القاهرة، ط1.
4. بابلحاج، ربيعة.(2008). ملامح تعليمية اللغة عند ابن خلدون. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان العربي والمناهج الحديثة، جامعة قاصدي مرباح ورقلة.
5. البديرات، باسم يونس. (2007). الفكر اللغوي عند ابن خلدون في ضوء علم اللغة المعاصر. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة مؤتة.
6. بن خلدون، عبد الرحمن. (2001). مقدمة بن خلدون. دار الفكر، بيروت لبنان، د ط.
7. حساني، أحمد. (2009). دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ط2.
8. الحضرمي، عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي. (2004). رحلة ابن خلدون. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1.
9. الحوسني، حياة حسين. (2006). ملامح الفكر الاجتماعي. د د، الإسكندرية، ط1.
10. الراجحي، عبده. (2008). النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1.
11. الزريقات، إبراهيم عبد الله فرج. (2005). اضطرابات الكلام واللغة التشخيص والعلاج. دار الفكر، عمان الأردن.
12. الزريقات، ابراهيم عبد الله فرج. (2009). الإعاقة السمعية مبادئ التأهيل السمعي والكلامي والتربوي. دار الفكر، عمان الأردن، ط1.
13. الزغلول، عماد عبد الرحيم. مبادئ علم النفس التربوي. (2012). دار الكتاب الجامعي، العين الامارات، ط2، 2012.

14. زكريا، ميشال. (1986). الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة). المؤسسة الجامعية، بيروت، ط2.
15. زكريا، ميشال. (1993). قضايا ألسنية تطبيقية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1.
16. سليم، مريم. (2002). علم نفس النمو، دار النهضة العربية. دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1.
17. شمس الدين، عبد الأمير. (1984). الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق. دار اقرأ، بيروت لبنان، ط1.
18. الشيخ، حنان فتحي. (2011). اضطرابات اللغة والكلام. مكتبة الفلاح، الكويت، ط1.
19. طعيمة، رشدي أحمد. (2004). المهارات اللغوية (مستوياتها، تدريسها، صعوباتها). دار الفكر العربى، القاهرة، ط1.
20. عبد الهادي وعياد، نبيل ووليد. (2009). تعلم مهارات التفكير بين النظرية والتطبيق. دار وائل، عمان الأردن، ط1.
21. العتوم، عدنان يوسف. (2012). علم النفس المعرفي النظرية والتطبيق. دار المسيرة، عمان الأردن، ط3.
22. العلوي، شفيقة. (2004). محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة. أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1.
23. عيساني، عبد المجيد. (2012). نظريات التعلم وتطبيقاتها في علوم اللغة. دار الكتاب الحديث. القاهرة، ط1.
24. فارع وآخرون، شحدة. (2008). مقدمة في اللغويات المعاصرة. دار وائل، عمان الأردن، ط4.
25. مدكور، علي أحمد. (2007). طرق تدريس اللغة العربية. دار المسيرة، عمان الأردن، ط1.
26. مصباح، عامر. (2010). المدخل إلى الأنثروبولوجيا. دار الكتاب الحديث، القاهرة الكويت الجزائر.
27. ناصف، مصطفى. (1983). نظريات التعلم. عالم المعرفة، الكويت، د ط.
28. نعمان، بوقرة. (2006). محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة. منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، دط.
29. نوفل وأبو عواد، محمد بكر وفريال محمد. (2011). علم النفس التربوي. دار المسيرة، عمان الأردن، ط1.
30. يوسف، جمعة سيد. (1990). سيكولوجية اللغة والمرض العقلي. عالم المعرفة، الكويت، د ط.